وقد أكد أبو بكر الصديق رضي الله عنه هذه الروح عندما تمت له البيعة وصعد المنبر وخطب في الناس فقال، بعد أن حمد الله وأثنى عليه : "أما بعد أيها الناس : إني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني ... أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم".(١)

ففي هذه الخطبة يقرر خليفة رسول الله (ﷺ) أن الحاكم أو الخليفة ليس حاكمًا مطلقًا، بل إن للأمة حق القوامة عليه لأنها هي التي ولته، فهي تعاونه إن أحسن، وتقومه : أي تحاسبه وتنتقده وترشده إن أساء. (٢)

فالأمة هنا هي مصدر السلطات، ولقد طلب منهم أبو بكر مشاركتهم إياه، لأنه يجتهد فيصيب ويخطئ مثل كل مجتهد، فإذا لم يخضع لتقويمهم فلهم حق عزله، كما كان لهم حق توليته.

أما عن سياسته رضي الله عنه، فكان يأخذ فيها بالشورى اقتداء برسول الله (ﷺ)، وقد ورد عنه رضي الله عنه أنه كان إذا ورد عليه أمر نظر في كتاب الله تعالى، فإن وجد فيه ما يقضي به قضى به، وإن لم يجد نظر في سنة رسول الله (ﷺ) فإن وجد ما يقضي به قضى به، فإن أعياه ذلك سأل الناس : هل علمتم أن رسول الله (ﷺ) قضى فيه بقضاء ؟ فربما قام إليه القوم فيقولون قضى فيه بكذا وكذا، فإن لم يجد سنة سنها النبي (ﷺ) جمع رؤساء الناس فاستشارهم فإن أجمع رأيهم على شيء قضى به. ولم يكن ذلك في مجال القضاء وحده بل كان يستشير في شئون الحكم أيضًا. (٣)

---

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، مرجع سابق، جـ٤، ص : ٦٦١.

(2) محمد ضياء الدين الريس، النظريات السياسية الإسلامية، مرجع سابق، ص : ١٧٧.

(3) علي يوسف السبكي، نظام الحكم والإدارة في العهد النبوي والخلافة الراشدة، ط١ (القاهرة : مكتبة سعيد رأفت، ١٩٨٤) ص : ١٣١.

وتتجلى مرونة أبي بكر الصديق رضي الله عنه في أروع صورها عند إنفاذ جيش أسامة بن زيد، ويضرب المثل الأعلى في حفظ حقوق القائد بالنسبة لمن هم تحت إمرته بحيث لا تتدخل سلطة عليا في سلطته إلا باستئذان فيقول لأسامة : "إن رأيت أن تعينني بعمر فأفعل، وكان يستطيع أن يستبقي الفاروق دون إذن من أحد وهو القائد الأعلى وولى أمر المسلمين، ولكنها الروح الإسلامية السياسية الراقية، فيأذن له أسامة، ويعود الفاروق إلى المدينة ليكون عونًا لخليفة رسول الله (ﷺ).(١)

بعد ذلك يخطب أبو بكر في الجند خطبة تتجلى فيها الروح السياسية والعسكرية الصافية، كما يتجلى فيها منهجه العادل السامي في الرحمة والرقة والرأفة حتى في أوقات الحروب فيقول رضي الله عنه : "أيها الجند : قفوا أوصيكم بوصايا فأحفظوها عني : لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيرًا، ولا شيخًا كبيرًا، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرًا إلا لمأكله، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم إليه".(٢)

تلك وصية تصدر إلى جيش محارب مهمته الأولى هي الحرب والقتال وإخضاع العدو، ومع ذلك فمن يقرأها يدرك مدى ما تنطوي عليه من الرفق واللين وعدم البطش أو التدمير.

فقد عنى رسول الله (ﷺ) بمحو التنظيم القبلي، وتنشئة الدولة الإسلامية على نسق جديد يتسم بالمرونة والأخذ بروح الشريعة. (١)

ثالثًا : روح القوانين في عهد الصحابة والتابعين :

تعلم المسلمون من قائدهم ومعلمهم (ﷺ) قبل وبعد وفاته الأخذ بروح القوانين في تسيير أمور الحكم، فقد ترك لهم الأمر ليختاروا لأنفسهم من يسوس لهم حياتهم على الوجه الذي يلائم أحوالهم ويناسبهم(٢)، وقد تجلى ذلك في النقاش الذي تم بين المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة حتى تمت البيعة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه. (٣)